

الأمير عبد المالك الجزائري،
وموقف المؤرخين المغاربة منه.

✍ جعفر ابن الحاج السلمي*

مقدمة: لا شك في أن الأمير عبد المالك الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر الشهير، بعمله السياسي والعسكري، في الجزائر والمغرب الأقصى، استطاع أن يكون جزءاً من تاريخ مشترك بين الشام والمغربين الأذن والأقصى.

لم تُكتب دراسات دقيقة عن الأمير عبد المالك الجزائري، ونشاطه السياسي باللغة العربية. بل لم يُكتب عنه شيء ذو بال باللغة الفرنسية، ولا باللغة الإسبانية، مع أنه حاض في السياسة الفرنسية والإسبانية، عدواً شرساً أو مهادناً، سنوات طويلاً، وأقضى مضاجع مهندسي السياسة الإستعمارية في المغرب الأقصى، سنوات طويلاً. وكل ما عندنا هو إشارات متفرقة، ترد في المصادر والمراجع المغربية والأجنبية. وسنقتصر في هذا المقام، على جمع المعلومات المكتوبة بالعربية، وتحليل مصادر هذه المعلومات، لعلنا نساهم بعض المساهمة في كتابة أو إعادة كتابة تاريخ هذا الأمير، المجاهد في بلاد بعيدة عن مسقط رأسه، بلاد الشام، وفي ظروف صعبة.

1- المؤرخ المجهول، صاحب مقبرة الأمير عبد المالك بالزاوية الحراقية بتطوان: ما أن سقط الأمير عبد المالك الجزائري صريعاً في ميدان القتال، ضداً على رجال الأمير الخطابي في الريف، حتى نُقل إلى تطوان، فدُفن بها، في الزاوية الحراقية الدرقاوية. ولم يكن اختيار هذه الزاوية ضريحاً له، أمراً عبثاً. فقد دُفن بها من الأكابر، الأمير مولاي المهدي، خليفة السلطان، نفسه، وممثله في منطقة الحماية الإسبانية، بموجب عقد الحماية. إنها أقرب ما تكون، إلى المقبرة الملكية، أو مقابر كبار الأعيان، ورجال الدولة. إن الرغبة الشديدة في تكريم الأمير الجزائري، بعد مصرعه، واضحة في هذا الاختيار. وقد ترجمت نفسها في مقبرته كُتبت كاتِب مجهول، ونقشها نقاش خطاط، بخط مغربي متمشرق جميل، في لوح رُحامي نفيس. هذا نصها.

"باسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده.

*أستاذ التعليم العالي - شعبة التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبد الملك السعدي - تطوان - المغرب.

هاذا ضريحُ شمسِ الأمراء، وَبدرِ العُظماء، وَدُرّةُ عُقودِ الكُبراء، وَغُرّةُ جَبْهَةِ الدِّينِ وَالثَّقَى، وَنورِ سراجِ المحاميدِ وَالْعُلَى، حامي حوزَةِ المِلَّةِ الحَنِيفِيَّةِ، وَمُؤَيِّدِ الشَّرِيعَةِ الإسلاميَّةِ، أَشْجَعُ الشُّجْعَانِ، وَأَمْهَرُ الْفُرْسَانِ، فِي الْحَرْبِ وَالطَّعَانِ، مَنْ كَانَتْ الْأَعْدَاءُ فِي حُصُونِهَا مِنْ سَطَوْتِهِ وَهَيْبَتِهِ تَعْدُ [كَذَا] قُلُوبُهَا وَتَبْتَكِمُ، [كَذَا] وَالْأَسْوَدُ فِي عَاجِمِهَا ثُرَاغُ وَتَجِمُ، وَمَنْ جُمِعَتْ فِي نَفْسِهِ الطَّاهِرَةُ أَنْوَاغُ الْفَضَائِلِ، وَمَحَاسِنُ الشَّمَائِلِ. أَشْهَمُ الْهَمَامِ، وَصَاحِبُ الْقَلَمِ وَالْحُسَامِ، الشَّرِيفُ الْجَلِيلُ، وَالْعَالِمُ النَّحْرِ، وَالْمُجَاهِدُ الْكَبِيرُ، فَرَعُ الشَّجَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالسَّلَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، نَجَلُ الْأُمَرَاءِ الْعِظَامِ، وَالْمُلُوكِ الْأَعْلَامِ، مَوْلَايَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ مُحْيِي الدِّينِ، [كَذَا]، الْحَسَنِيُّ. اسْتَشْهَدَ مُلْكِيًّا دَاعِيَّ اللَّهِ، نَوَّرَ اللَّهُ جَدَّتَهُ، وَأَسْكَنَهُ عَالِي جَنَّتِهِ، ظَهَرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، سَادِسَ مُحَرَّمٍ، عَامَ 1343. وَعُمُرُهُ 54."

إِنَّ مُؤَرِّخَهُ هَذَا تَعَمَّدَ وَلَا شَكَّ امْتِدَاحَ الْأَمِيرِ، بِأَسْلُوبِهِ الْمَسْجُوعِ، وَعِبَارَاتِهِ الْأَدَبِيَّةِ الْمَجَازِيَّةِ. وَمَعَ هَذَا التَّغْلِيفِ الْأَدَبِيِّ لِسِيرَتِهِ، فَإِنَّا نَظْفُرُ مِنْ هَازِهِ الْوَثِيقَةِ، بِأَشْيَاءَ مُهِمَّةٍ:

1- فِيهِ تَرَصُّدُ جَانِبِهِ الْعَسْكَرِيِّ. 2- وَتَرَصُّدُ جَانِبِهِ الدِّينِيِّ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْأَمِيرَ، كَانَ حَرِيصًا عَلَى إِبْرَازِ نَفْسِهِ فِي صُورَةِ "غُرَّةِ جَبْهَةِ الدِّينِ وَالثَّقَى"، وَ"حَامِي حَوْزَةِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَمُؤَيِّدِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ"، وَأَنَّ هَذَا الْجَانِبَ، كَانَ أَاسَاسِيًّا فِي دَعَايَتِهِ أَيَّامَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ، وَدَعْوَتِهِ الْقَبَائِلِ، لِطَاعَةِ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ، بِاسْمِ الْإِسْلَامِ. 3- وَهِيَ تَرَى فِيهِ كَاتِبًا "صَاحِبَ قَلَمٍ"، 4- وَهِيَ تَرَى فِيهِ شَهِيدًا يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيمَ. 5- وَهِيَ تُعْطِئُنَا بَعْضَ الْمَعْلُومَاتِ الْمُهِمَّةِ، كَسِتِّهِ يَوْمَ انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ، وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّهُ وُلِدَ حَوْلَ 1289هـ، بِالْحِسَابِ الْمِجْرِيِّ، أَوْ 1871م، بِالْحِسَابِ الْمِيلَادِيِّ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا كَتَبَهُ الْمُؤَرِّخُ الْمَجْهُولُ، لِيُنْقَشَ عَلَى الْمَقْبَرَةِ، إِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنِ الرَّأْيِ السِّيَاسِيِّ لِكُلِّ مَنْ سُلْطَةِ الْحِمَايَةِ الْإِسْبَانِيَّةِ، فِي شَمَالِ الْمَغْرِبِ، (الْإِقَامَةِ الْعَامَّةِ) وَالرَّأْيِ السِّيَاسِيِّ لِلْمَخْزَنِ الْخَلِيفِيِّ بِشَمَالِ الْمَغْرِبِ، وَقَدْ سَقَطَ الْأَمِيرُ، وَهُوَ فِي خِدْمَتِهِمَا، يُقَاتِلُ عَدُوَّهُمَا الْمُشْتَرَكَّ، الْأَمِيرَ الْخَطَّابِيَّ، مُتَقَدِّمًا الصُّفُوفَ بِنَفْسِهِ.

2- إِتْحَافُ أَعْلَامِ التَّاسِ بِجَمَالِ أَخْبَارِ حَاضِرَةِ مَكْنَسِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدَانَ. (1365هـ - 1946م): لَعَلَّ الْمُؤَرِّخَ الرَّسْمِيَّ لِلْمَغْرِبِ فِي عَهْدِ الْحِمَايَةِ، نَقِيبَ الْأَشْرَافِ الْعُلَوِيِّينَ، عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدَانَ، أَوَّلُ الْمُؤَرِّخِينَ الْمَغَارِبَةِ، الَّذِينَ اسْتَوْفَقْنَهُمْ ظَاهِرَةً قُدُومِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْجَزَائِرِيِّ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَابْتَغَى أَنْ يُفَسِّرَهَا. لَمْ يَكْتُبْ عَنْهُ كِتَابًا وَلَمْ يُتَرْجَمَ لَهُ فِي كُتُبِهِ. وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَةً قَصِيرَةً، فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنِ التَّمَرِّدِ الشَّهِيرِ، الْجِيلَالِيِّ الزَّرْهَوْنِيِّ، الْمَشْهُورِ بِأَبِي حِمَارَةَ، بِالرَّغْمِ مِنْ

أَنَّهُ كَانَ قَدْ مَاتَ وَقْتَ نَشْرِهِ لِكِتَابِهِ. بَلْ لَمْ يُشِرْ إِطْلَاقًا إِلَى حَرَكَتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي شَمَالِ الْمَغْرِبِ. قَالَ عَنِ الثَّائِرِ الْمَذْكُورِ: "وَفَاهُ الطَّبِيبُ بْنُ أَبِي عِمَامَةَ، فِي جَمَاعَةٍ مِنْ ذَوِيهِ، وَفِي مَعِيَّتِهِ عَبْدُ الْمَالِكِ بْنُ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ مُحْيِي الدِّينِ، الَّذِي كَانَ حَاءَ لِنَتْلِكَ التَّوَّاحِي مِنْ فِجِيجٍ، بِقَصْدِ تَرْوِيضِ النَّفْسِ وَالسِّيَاحَةِ، وَنَزَلَ عَلَى أَبِي عِمَامَةَ. فَلَمَّا ظَهَرَ هَذَا الثَّائِرُ، إِشْتَاكَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى كُنْهِهِ، عَلَى عَادَةِ رِجَالِ الْحَرْبِ."¹

بَيَدَ أَنَّهُ يَسْتَوْفِنَا قَوْلُهُ عَنْهُ: "جَاءَ لِنَتْلِكَ التَّوَّاحِي مِنْ فِجِيجٍ، بِقَصْدِ تَرْوِيضِ النَّفْسِ وَالسِّيَاحَةِ". فَهَلْ مَنْ يَجِئُ لِهَذَا الْغَرَضِ، لَا يَجِدُ مُضِيفًا لَهُ، وَلَا دَارَ ضِيَاةٍ، إِلَّا ثَائِرًا عَلَى الْمَخْزَنِ الشَّرِيفِ؟! أَمْ إِنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ الْمَالِكِ، جَاءَ إِلَى فِكْكِ، وَفِي نَفْسِهِ مَا فِي نَفْسِهِ، مِنْ رَغْبَةٍ فِي اسْتِطْلَاعِ أَحْوَالِ الْمَغْرِبِ، وَمَعْرِفَةِ لِرِجَالِهِ، وَلَا سِيَّمَا الْمَغْرِبُ الثَّائِرُ عَلَى الْمَخْزَنِ الْعَلَوِيِّ؟ ثُمَّ كَيْفَ لَا يَجِدُ بَدِيلًا عَنْ أَبِي عِمَامَةَ، الثَّائِرِ فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِلْمَغْرِبِ، إِلَّا أَبَا حِمَارَةَ، الثَّائِرَ فِي شَمَالِ الْمَغْرِبِ وَشَرْقِهِ. إِنَّ التَّنْفِيرَ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْمُورُخُ النَّقِيبُ، يَدْعُو إِلَى الشَّكِّ بِالضَّرُورَةِ. كَمَا يَدْعُو إِلَى التَّمَلُّ، رَغْبَتُهُ فِي التَّمْوِيهِ عَلَى نَوَايَا الْأَمِيرِ عَبْدَ الْمَالِكِ، وَالتَّسْتَرِّ عَلَيْهَا، وَعَلَى تَنَاقُضَاتِ مَسَارِهِ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ وَفَاةِ الْأَمِيرِ. لَقَدْ ظَهَرَ الْأَمِيرُ ظُهُورًا مُفَاجِئًا فِي السَّاحَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ. كَمَا لَمْ يُشِرْ إِلَى إِقَامَتِهِ فِي الْجَزَائِرِ، قَبْلَ دُخُولِهِ الْمَغْرِبِ، وَلَا إِلَى عِلَاقَتِهِ بِالْعُثْمَانِيِّينَ أَوْ الْفَرَنْسِيِّينَ. إِنَّ "السِّيَاحَةَ"، ثُمَّ حُبَّ الْإِسْتِطْلَاعِ، يُفَسِّرَانِ التَّحَاقُّقَ الْأَمِيرِ بِأَكَابِرِ ثَوَارِ الْمَغْرِبِ، فِي الْعَهْدِ الْعَزِيزِيِّ، وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُمَا. وَهَذَا مَا يَدْعُو إِلَى الْعَجَبِ وَالْحَذَرِ.

3- الظَّلُّ الْوَرِيفُ فِي مُحَارَبَةِ الرَّيْفِ لِأَبِي الْعَبَّاسِ، أَحْمَدَ سُكْرَج. (1363هـ): اسْتَعْلَّ أَحْمَدُ سُكْرَجُ، الْقَاضِي بِمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ، فُرْصَةَ حُلُولِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ أَرْزَقَانَ، وَزِيرِ خَارِجِيَّةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الرَّيْفِيَّةِ، الَّتِي أَعْلَنَهَا صَهْرُهُ وَابْنُ قَبِيلَتِهِ، الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْخَطَّابِيِّ، (1920م-1926م) بِمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ، عَلَى سَبِيلِ الْإِقَامَةِ الْجَبَرِيَّةِ، بَعْدَ اسْتِسْلَامِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، وَاحْتِلَالِ الرَّيْفِ، سَنَةَ 1926م، وَتَفَرُّقِ شَمْلِ رِجَالِ حَرَكَتِهِ، لِيَجْتَمَعَ بِهِ، وَيَسْتَحْبِرَهُ أَجْبَارَ الْحَرَكَةِ الرَّيْفِيَّةِ الشَّهِيرَةِ. إِنَّ كِتَابَ الظَّلِّ الْوَرِيفِ، هُوَ فِي الْوَاقِعِ، الْمَذْكُورَاتُ الشَّفَوِيَّةُ لِلْوَزِيرِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ أَرْزَقَانَ، وَزِيرِ خَارِجِيَّةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الرَّيْفِيَّةِ، الَّتِي أَمْلَاهَا عَلَى الْمُؤَلِّفِ. يَقُولُ السُّكْرَجُ عَنْ سِيَاقِ تَأْلِيفِهِ لِهَذَا الْكِتَابِ: "سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِي بِالاجْتِمَاعِ مَعَ الْفَاضِلِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ أَرْزَقَانَ، وَزِيرِ خَارِجِيَّةِ الْأَمِيرِ ابْنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْكَرِيمِ... فَسَأَلْتُهُ عَمَّا أَجَابَنِي عَنْهُ بِمَا سَأَدَّكُرُهُ هُنَا، مُعْتَمِدًا عَلَى مَا قَالَ، وَمَا لِي إِلَّا مُجَرَّدُ التَّنْقِلِ عَنْهُ، مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ لِي سَابِقَةٍ تَحْقِيقِيَّةٍ فِيَمَا سَأَسْطَرُّهُ عَنْهُ."²

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْكِتَابَ غَيْرُ مُؤَرَّخٍ، فَلَا نَدْرِي بِالضَّبْطِ سَنَةَ تَدْوِينِ هَذِهِ الْمَذْكُرَاتِ الشَّفَوِيَّةِ، وَلَا كَيْفِيَّتِهَا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ أَسْئَلَةً مِنَ الْمُؤَلِّفِ الْقَاضِي، وَأَجْوِبَةً مُسْتَفِيزَةً مِنَ الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ، تَحَوَّلَتْ إِلَى كِتَابٍ مَكْتُوبٍ مُحَرَّرٍ ذِي فُصُولٍ. وَالرَّاجِحُ أَنَّ الْقَاضِي اسْتَجَابَ الْوَزِيرَ فَوْرَ وَصُولِهِ إِلَى مَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ لِلإِقَامَةِ بِهَا، أَوْ بُعِيدَ ذَلِكَ، حَيْثُ كَانَتْ ذَاكِرَةُ الْوَزِيرِ تَحْتَزُنُ مَعْلُومَاتِ هَائِلَةٍ، وَلِسَانُهُ يُعَبِّرُ عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَهُوَ أَقْدَمُ مَصْدَرٍ مَغْرِبِيٍّ بَعْدَ انْتِفَاحِ أَعْلَامِ النَّاسِ، يُشِيرُ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْجَزَائِرِيِّ، وَأَقْدَمُ تَأْلِيفٍ مَغْرِبِيٍّ يَتَنَاوَلُ الْحَرَكَةَ الرَّيْفِيَّةَ.

خَصَّصَ السُّكَّرِيحُ فَصْلًا خَاصًّا بِالْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْوَتُهُ بِقَوْلِهِ: "ذِكْرُ قِيَامِ عَبْدِ الْمَلِكِ مُحْيِي الدِّينِ بِالرَّيْفِ، وَأَفْعَالِهِ الْمَشَاوِمَةَ، وَانْخِذَالِهِ بِمُخَادَعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فِي انْتِصَارِهِ لِلْأَلْمَانِ وَالْإِصْبَانِ."³ وَيُظْهِرُ أَنَّ تَخْصِيصَ فَصْلٍ خَاصٍّ بِالْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، يَرْجِعُ إِلَى شِدَّةِ التَّأْثِيرِ السَّلْبِيِّ الَّذِي مَارَسَهُ الْأَمِيرُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ وَحَرَكَتِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ وَزِيرُ الْخَارِجِيَّةِ مُحَمَّدٌ أَرْزَقَانُ تَجَاهُلُهُ أَوْ تَنَاسِيَهُ، سِيَّمَا بَعْدَمَا تَصَدَّى لَهُ هُوَ بِنَفْسِهِ. وَوَاضِحٌ جَدًّا مِنَ الْعُنْوَانِ إِدَانَةُ الْوَزِيرِ أَرْزَقَانَ لِخَصْمِهِ السِّيَاسِيِّ، وَاتِّهَامُهُ لَهُ بِخِذْلَانِ الْمُسْلِمِينَ وَمُخَادَعَتِهِمْ خِدْمَةً لِلْسِّيَاسَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَالْإِصْبَانِيَّةِ.

1- فَهُوَ يَسْكُتُ بِالْكُلِّيَّةِ عَنْ نَشَاطِهِ فِي الْمَغْرِبِ مُنْذُ أَنْ قَدِمَ إِلَيْهِ فِي الْعَهْدِ الْعَزِيزِيِّ. وَإِنَّمَا يُسَجِّلُ خُرُوجَهُ الْمَفَاجِئَ مِنْ طَنْجَةِ فَارًّا بِنَفْسِهِ قَائِلًا: "لَمَّا فَرَّ عَبْدُ الْمَلِكِ مُحْيِي الدِّينِ الْجَزَائِرِيُّ مِنْ طَنْجَةِ فِي الْحَرْبِ الْكُبْرَى إِلَى الْمِنْطَقَةِ الْإِصْبَانِيَّةِ..."⁴، وَفِي غُضُونِ ذَلِكَ يُقَدِّمُ مَعْلُومَاتٍ دَقِيقَةً لَا نَجِدُهَا عِنْدَ مُعَاصِرِهِ التَّهَامِيِّ الْوَزَائِيِّ، إِذْ يُؤَكِّدُ اتِّصَالَهُ بِزَاوِيَةِ ابْنِ الصَّدِيقِ فِي غُمَارَةِ أَوَّلًا.⁵ وَهُوَ لَا يَذْكُرُ الْقَبْضَ عَلَيْهِ فِي قَبِيلَةِ وَدْرَاسِ بِنَاحِيَّةِ طَنْجَةِ، وَلَا مَوْقِفَ الْقَائِدِ الزَّلَّالِ الشَّهْمِ، وَحِمَايَتَهُ لَهُ.

2- ثُمَّ يَرِصُدُ نَشَاطَهُ فِي الْقَبَائِلِ، بِنَاحِيَّةِ فَاسٍ، مُتَعَاوِنًا مَعَ الْمُخَابِرَاتِ الْأَلْمَانِيَّةِ، وَدَعْوَتَهُ إِلَى مُنَاوَأَةِ فَرَنْسَةِ، وَتَجْنِيدِ رِجَالِ الْقَبَائِلِ الرَّيْفِيَّةِ، وَتَعَدُّرِ تَفَاهُمِ الْأَمِيرِينَ الْجَزَائِرِيِّ وَالْخَطَّابِيِّ فِي خُصُوصِ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ مُضَادٍّ لِفَرَنْسَةِ، وَأَسْبَابَ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يُشِيرَ إِلَى دَعْوَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى الْجِهَادِ تَحْتَ رَايَةِ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ.⁶

3- ثُمَّ يُسَجِّلُ حِمَايَةَ قَبِيلَةِ بَنِي وَرِيَاغِلٍ لِلْأَمِيرِ الْجَزَائِرِيِّ، عِنْدَ فَشْلِ حَرَكَتِهِ الْمُنَاوِئَةِ لِفَرَنْسَةِ، وَانْهِيَارِ أَلْمَانِيَّةِ، عَامَ 1918م، بَعْدَمَا تَعَرَّضَ لِذَايَةِ قَبَائِلِ صَنْهَاجَةٍ، وَعَوْدَتِهِ إِلَى زَاوِيَةِ تُحْكَانَ، بِقَبِيلَةِ غُمَارَةِ.⁷

4- ثُمَّ يَرِصُدُ عَوْدَتَهُ إِلَى قَبَائِلِ نَاحِيَةِ فَاس، وَلَا سِيَّمَا قَبِيلَةَ مَرْنَيْسَةَ، وَعَلَاقَتَهُ بِعُمَرَ حَمِيدِو المَرْنَيْسِيِّ. "فَصَارَتْ لِعَبْدِ الْمَالِكِ رَابِطَةٌ سِرِّيَّةٌ مَعَ الْإِسْبَانِ، فِي تَهْيِيجِ الْأَفْكَارِ عَلَى الرَّيْفِ، لِيَشْغَلَهُمْ عَنْ مُحَارَبَةِ عَدُوِّهِمُ الْإِسْبَانِ. وَكَانُوا يُوجِّهُونَ إِلَيْهِ الْأُمُوالَ..."⁸

5- ثُمَّ يَرِصُدُ اجْتِمَاعَ الْأَمِيرِينَ الْخَطَّابِيِّ وَالْجَزَائِرِيِّ، فِي مَرْنَيْسَةَ، وَدَعْوَةَ الْخَطَّابِيِّ لِلْجَزَائِرِيِّ لِلْإِقَامَةِ فِي بَنِي وَرْيَاغَل، "لِتَحْصُلَ لَهُ الرَّاحَةُ، أَوْ يَبْقَى بِمَرْنَيْسَةَ، فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ. فَاخْتَارَ الْبَقَاءَ فِي مَرْنَيْسَةَ."⁹ ثُمَّ تَحْرِيزُ الْقَائِدِ الْمَرْنَيْسِيِّ وَالْأَمِيرِ الْجَزَائِرِيِّ قَبَائِلَ صَنْهَاجَةَ عَلَى الْحَرَكَةِ الرَّيْفِيَّةِ، بِاسْتِعْمَالِ "الْمُكَائِدِ".¹⁰

6- ثُمَّ يَرِصُدُ عَوْدَتَهُ إِلَى قَبَائِلِ الرَّيْفِ الْأَوْسَطِ، لِمُقَاتَلَةِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، مُتَعَاوِنًا مَعَ صَاحِبِهِ قَائِدِ مَرْنَيْسَةَ، قَائِلًا: "وَبَعْدَ أَيَّامٍ، غَدَرَ عُمَرُ بْنُ أَحْمِيدِو، [الْمَرْنَيْسِيِّ] وَقَامَ فِي وَجْهِ الْمُجَاهِدِينَ، صُحْبَةً عَبْدَ الْمَالِكِ، الَّذِي كَانَتْ الْإِسْبَانُ تُوجِّهُ لَهُ الْأُمُوالَ الْبَاهِضَةَ، وَهُوَ يُوزَعُّهَا عَلَى الْقَبَائِلِ، حَتَّى فِي دَاخِلِ الرَّيْفِ ... وَاشْتَعَلَتِ النَّارُ بَعْتَةً فِيمَا بَيْنَ الْقَبَائِلِ الرَّيْفِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ الْإِصْبَانَ عَمِلَ احْتِفَالًا كَبِيرًا فِي مَلِيلِيَا وَتَطَوَانَ، فَرَحًا بِانْتِصَارِ عَبْدِ الْمَالِكِ، وَتَجَاحَ مَسَاعِيهِ الَّتِي كَانُوا يُؤْمَلُونَهَا."¹¹ ثُمَّ يُسَجِّلُ فَشْلَهُ وَفَشْلَ صَاحِبِهِ الذَّرِيعِ.¹²

7- ثُمَّ يَرِصُدُ عَوْدَتَهُ إِلَى تَطَوَانَ، حَيْثُ كَانَتْ عَائِلَتُهُ تَسْكُنُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ طَنْجَةِ، بَعْدَمَا فَرَ إِلَى مَلِيلِيَّةٍ، فَأَرَا مِنَ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، حَيْثُ اتَّصَلَ بِالْإِسْبَانِ، "فَحَمَلُوهُ مِنْ تَطَوَانَ إِلَى مَلِيلِيَا، فِي بَابُورِ حَرْبِيٍّ، وَفَرِحُوا بِهِ فَرَحًا كَبِيرًا." وَكُلُّ هَذَا، قَصْدٌ مُنَاوَأَةً الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، وَتَطْوِيعِ الْقَبَائِلِ الرَّيْفِيَّةِ، لِفَائِدَةِ "طَاعَةِ الْحُكُومَةِ".¹³

8- ثُمَّ يَرِصُدُ عَوْدَتَهُ إِلَى الرَّيْفِ الشَّرْقِيِّ، لِمُقَاتَلَةِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، "ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَلِيلِيَا إِلَى عَزِيبِ مِيضَارٍ، وَجَمَعَ هُنَاكَ مَحَلَّةً كَبِيرَةً مِنَ الْقَبَائِلِ، وَمَعَهُ بَعْضُ ضُبَّاطِ الْإِصْبَانِ."¹⁴

9- ثُمَّ يُسَجِّلُ كَيْفِيَّةَ مَقْتَلِهِ، وَيُرْجِعُهَا إِلَى الْحِيلَةِ الَّتِي دَبَّرَهَا الْأَمِيرُ الْخَطَّابِيُّ لَهُ، لَمَّا عَرَفَ مَبْلَغَ الْقُوَّةِ الَّتِي مَعَهُ، فَأَدَّى الْحَالُ إِلَى مَقْتَلِهِ وَحَمَلِ الْإِصْبَانِ لَهُ إِلَى تَطَوَانَ، وَهَزَامِ مَحَلَّتِهِ وَتَفْرِقُهَا.¹⁵

وَعَبَّرَ كُلَّ التَّفَاصِيلِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا وَزِيرُ خَارِجِيَّةِ الْحَرَكَةِ الرَّيْفِيَّةِ، نُلَاحِظُ اسْتِثْنَاءًا وَاضِحًا مِنَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ حَتَّى بَعْدَ وَفَاتِهِ، يُصَوِّرُهُ الْوَزِيرُ الْمَنْفِيُّ. وَهُوَ يَشْمَلُ مَرَحَلَةَ مُقَاتَلَتِهِ لِلْفَرَنْسِيِّينَ، وَمَرَحَلَةَ اسْتِغْلَالِهِ لِفَائِدَةِ الْحِمَايَةِ الْإِسْبَانِيَّةِ، وَمِنْ وَرَائِهَا الْمَخْزَنُ الْخَلِيفِيُّ بِشَمَالِ الْمَغْرِبِ، عَلَى السَّوَاءِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْعِدَاوَةَ السِّيَاسِيَّةَ بَيْنَ الْأَمِيرِينَ الْخَطَّابِيِّ وَالْجَزَائِرِيِّ قَدْ مَدَّتْ ظِلَّهَُا مَدًّا عَلَيْهِ، وَأَنَّ اسْتِثْنَاءَ الْوَزِيرِ الرَّيْفِيِّ فِي قِيَادَةِ حَمَلَةِ لِمُقَاتَلَةِ أَنْصَارِهِ¹⁶ قَدْ أَثَّرَ تَأْثِيرًا شَدِيدًا فِي رُؤْيَتِهِ لِلْأَمِيرِ عَبْدِ

الملك وحرّكته. فهو، عنده، رجلٌ مشؤوم كان يعمل لفائدة الألمان أولاً، ثم لفائدة الإسبان ثانياً، وهو في كل ذلك يُحَادِثُ "المُسْلِمِينَ".¹⁷

4- تاريخ المغرب للتّهاميّ الوزاني (1392هـ - 1972م): بعدَ عشرينَ سنةً من وفاة الأمير عبد المالك بقليل، كتب مؤرّخ الحركة الوطنيّة بشمال المغرب، الشريف سيّدي التّهاميّ الوزاني نصّاً فريداً عن الأمير عبد المالك. وعلى غرار المؤرّخ الثّقيب يرّد ذكر الأمير عبد المالك عرضاً في تاريخه. فهو لم يعقد له فصلاً أو فصولاً كما عقدها للرّيسوني والخطّابي، وكثّلت العمل الوطني. وإنّما جاء ذكره عرضاً لتفسير الأسباب الشخصيّة التي حمّلت الأمير الخطّابي على تبذير سياسة التعاون مع الإسبانين في ملييّة، والانتقال إلى سياسة المواجهة والجهاد في أحدير. لقد اعتبر الأمير الخطّابي بما جرى للأمير عبد المالك وأصحابه بعد هزيمة العثمانيين والألمان في الحرب العالميّة الأولى، فاستبقّ الحوادث، على مبدأ "بيدي لا بيد عمرو"، فعاجل المستعمرين قبل أن يُعاجلوه. لقد خاف أن يُسلّمه الإسبانيون للفرنسيين كما سلّموا أصحاب الأمير عبد المالك، فأراد أن يفرّ من ملييّة ليلتحق بقبيلته حيث يأمن على نفسه من شرّ فرنسة. قال الوزاني:

"سبّب فرار محمد بن عبد الكريم من ملييّة:

"أوائل الحرب العظمى، خرّج الأمير عبد المالك ابن الأمير عبد القادر بن محيي الدين، بطل الجزائر، من طنجة، بقصد إعلان الثورة ضدّ الفرنسيين في المغرب. فقبض عليه أهل قبيلة ودراس. وكان للقائد العياشي الزّلال، نفوذ في قبائل الجبل، لأنّه من خاصّة الشريف الرّيسوني. فأجاره من ودراس، وأكرمه، وقابله بما يليق. وبقي في ضيافته عدّة أيام. ولم يكن الأمير عبد المالك يدعي إلا أنّه فرّ بنفسه من طنجة، كي لا يقبض عليه الفرنسيون، بحجة أنّه سوريّ من رعايا السّلطان العثمانيّ.

فلما علم الفرنسيون، بأنّ محيي الدين، [كذا] بدار الزّلال، صاروا يراودون هذا القائد، على تسليمه لهم، وإرجاعه لطنجة. وكان الذي توكّل ذلك، الكرونيل نانسن الفرنسيّ، والقبطان ابن الحرث الجزائري. وقد بدّل الزّلال، 300000 ريال، ليُسَلّمَ لهم محيي الدين. [كذا] فأبى عليه ذلك كرمه ودينه وشرّفه.

ثمّ تسلّل محيي الدين، حتّى وصل لبني زروال، ومنها إلى جرتاية. فاستقرّ بمدشّر الكيفان، قرب تازة منها. وقد كان معه هرمان الألمانيّ. فأخذوا يحركان القبائل. وكان محيي الدين، ينشرُ المناشير، يدعو النّاس إلى طاعة السّلطان العثمانيّ، محمد رشاد. ودعا إلى الجهاد، تحت الرّاية

الخضراء. وصار يُكاتبُ زُعماء القبائل. فكانَ مِنَّ كاتبهم، الفقيهُ السيّد عبد الكريم الخطّابي. فأظهرَ لَهُ نوعاً مِنَ المجاملة. ولا كِنَّ حَرَكَةَ مُحبي الدين، لَمْ يُقدَّرَ لَهَا الثَّمُ وَالنَّجَاح. فلَمَّا انتهتِ الحربُ العُظمى، سَنَ 18، بقيَ مُحبي الدين يَحُولُ في القبائل، والقَوَاتُ الفرنسيَّة تُطارِدُهُ. وأخيراً لَجَأَ إلى الإِسبانيِّين بِمَلِيلِيَّة. وَكَانَ مَعَهُ نَحْوُ مِن ثَلَاثِ مِئَةٍ مِن أَصْحَابِهِ؛ أَصْلُهُم مِّنَ المِنطَقَةِ السُّلْطَانِيَّة. فَطَلَبَتْهُمُ الحُكُومَةُ الفرنسيَّة، فَسَلَّمتْ لَهَا حُكُومَةُ مَلِيلِيَّةِ البَعْضِ مِنْهُمْ، مِمَّنْ كانوا في مَرَكِزِ زايو. فَمَا كَادُوا يَصِلُونَ لِيَدِ الفرنسيِّين، حَتَّى حَكَمُوا عَلَيْهِمُ أَحْكَاماً قَاسِيَةً. وَأَمَّا الأَمِيرُ عَبْدُ المَلِكِ مُحبي الدين، [كَذَا] فَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَلِّمُوهُ، بَلْ تَوَجَّهَ إِلَى تَطَوَان، وَانضَمَّ إِلَى عَائِلَتِهِ الَّتِي كَانَتْ طِيلَةً غَيْبَتِهِ بِتَطَوَان.

ثُمَّ نَظَّمَ لَهُ الخِزَالُ بِرِيعِ دِي الرِّبْرَا حَرَكَةً. فَأَقَامَ بِهَا فِي مِيدَار، بِقَبِيلَةِ بَنِي تَوَزِينِ الرِّبْقِيَّة. وَحَتَّى هَازِهِ المَرَّة، لَمْ يَكُنْ مَحْظُوظًا. فَإِنَّهُ قَتَلَهُ هُنَالِكَ المُجَاهِدُونَ بِرِصَاصَةٍ. وَذَلِكَ يَوْمَ الخَمِيس، 6 مُحَرَّم، سَنَ 1343 هـ - 1925م. فَنُقِلَ فِي نَعْشِهِ إِلَى مَلِيلِيَّة، وَمِنْهَا إِلَى تَطَوَان، حَيْثُ دُفِنَ بِالرَّوَايَةِ الحَرَّاقِيَّة. ¹⁸

إِنَّ هَازَا النِّص، يَرِصُدُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً عَنِ الأَمِيرِ عَبْدِ المَلِكِ.

- 1- فَهُوَ يَسْكُتُ بِالْكَلْبَةِ عَنِ نَشَاطِهِ فِي المَغْرِبِ مُنْذُ أَنْ قَدِمَ إِلَيْهِ فِي العَهْدِ العَزِيزِيِّ. وَإِنَّمَا يُسَجَّلُ خُرُوجُهُ المُفَاجِئَ مِنَ طَنْجَةِ "بِقَصْدِ إِعْلَانِ الثَّوْرَةِ ضِدَّ الفرنسيِّينَ فِي المَغْرِبِ".
- 2- وَيُسَجَّلُ وَجُودُ أَعْدَاءِ لَهُ قَبِيلَةٍ وَدِرَاسِ بِنَاحِيَةِ طَنْجَةِ الَّتِي قَبِضَتْ عَلَيْهِ، وَأَحْبَابُ لَهُ كَانُوا مَعَهُ فِي غَايَةِ الشَّهَامَةِ، فَأَجَارَوْهُ وَحَمَوْهُ، وَلَمْ تُغْرِهِمْ أَمْوَالُ المُخَابِرَاتِ الفرنسيَّة.
- 3- ثُمَّ يَرِصُدُ نَشَاطَهُ فِي القَبَائِلِ بِنَاحِيَةِ فَاس، مُتَعَاوِنًا مَعَ المُخَابِرَاتِ الأَلْمَانِيَّة، وَدَعَوَتُهُ إِلَى مُنَاوَاةِ فَرَنَسَةِ وَطَاعَةِ السُّلْطَانِ العُثْمَانِيِّ.
- 4- ثُمَّ يَرِصُدُ لُجُوءَهُ إِلَى الإِسبَانِيِّينَ بِمَلِيلِيَّة فِي الرِّيفِ الشَّرْقِيِّ بَعْدَ هَزِيمَةِ الدَّوَلَةِ العُثْمَانِيَّة، وَنَذَالَةِ الإِسبَانِيِّينَ عِنْدَمَا سَلَّمُوا بَعْضَ اللَّاحِثِينَ مِن أَصْحَابِهِ إِلَى أَعْدَائِهِمُ الَّذِينَ انْتَقَمُوا مِنْهُمْ شَرَّ انْتِقَام.

5- ثُمَّ يَرِصُدُ عَوْدَتَهُ إِلَى تَطَوَان، لِلسُّكْنَى بِهَا مَعَ عَائِلَتِهِ.

6- ثُمَّ يَرِصُدُ عَوْدَتَهُ إِلَى الرِّيفِ الشَّرْقِيِّ لِمُقَاتَلَةِ الأَمِيرِ الخَطَّابِيِّ بَعْدَمَا "نَظَّمَ لَهُ الخِزَالُ بِرِيعِ دِي الرِّبْرَا حَرَكَةً؛ فَأَقَامَ بِهَا فِي مِيدَارِ بِقَبِيلَةِ بَنِي تَوَزِينِ الرِّبْقِيَّة."

7- ثُمَّ يُحَاوِلُ أَنْ يَفْهَمَ الْأَمِيرَ عَبْدَ الْمَالِكِ؛ فَعِنْدَهُ أَنَّهُ "...حَتَّى هَذِهِ الْمَرَّةَ، لَمْ يَكُنْ مَحْظُوظًا. فَإِنَّهُ قَتَلَهُ هُنَالِكَ الْمُجَاهِدُونَ بِرِصَاصَةٍ"، وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَبْذُلُ الْمَجْهُودَاتِ الْكَبِيرَةَ لِخِدْمَةِ حَرَكَتِهِ وَعَارِئِهِ السِّيَاسِيَّةِ. لَاحِظَنَّ الْحِظَّ السَّيِّئَ كَانَ لَهُ دَائِمًا بِالْمِرْصَادِ. فَلَمْ يُوفَّقْ فِي خِدْمَةِ الْعُثْمَانِيِّينَ وَالْأَلْمَانِ، وَلَا فِي خِدْمَةِ الْإِسبَانِيِّينَ وَالْمَخْزَنِ الْخَلِيفِيِّ الْعَلَوِيِّ فِي شَمَالِ الْمَغْرِبِ. ثُمَّ يُسَدِّلُ السُّتَارَ، فَلَا يُكْتَبُ شَيْءٌ عَنْ حَرَكَةِ الْأَمِيرِ عَبْدَ الْمَالِكِ، إِلَّا بَعْدَ اسْتِقْلَالِ الْمَغْرِبِ بِزَمَنِ طَوِيلٍ.

5- حَرْبُ الرَّيْفِ التَّحْرِيرِيَّةِ وَمَرَاكِجُ النُّضَالِ لِأَحْمَدَ الْبُوْعِيَّاشِيِّ (1405هـ-1985م): بَعْدَ خَمْسِينَ سَنَةً تَقْرِيْبًا مِنْ وَفَاةِ الْأَمِيرِ عَبْدَ الْمَالِكِ، أَيَّ سَنَةِ 1394هـ- 1974م، وَعَلَى غِرَارِ الْمُؤَرِّخِينَ السَّابِقِينَ، لَا يُكْتَبُ الْبُوْعِيَّاشِيُّ تَارِيخَ الْأَمِيرِ عَبْدَ الْمَالِكِ لِذَاتِهِ. بَلْ يَكْتُبُهُ لِأَحْلِ التَّارِيخِ لِحَرْبِ الرَّيْفِ وَنَشَاطِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ. وَقَدْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّمْهِيدِ لِهَذَا بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ بِالرَّيْفِ، قَبِيلَ قِيَامِ الْحَرْبِ الرَّيْفِيَّةِ، وَانْتِقَالِ الْخَطَّابِيِّ مِنْ "فَقِيهِ" إِلَى "أَمِيرٍ". وَقَدْ قَدَّمَ لَنَا مَعْلُومَاتٍ ثَمِينَةً؛ بَعْضُهَا جَاءَ تَدْوِينًا لِرَوَايَاتٍ شَفَوِيَّةٍ. وَبَعْضُهَا مِنْهَا هُوَ رَأْيُهُ الْخَاصُّ فِي الْأَمِيرِ عَبْدَ الْمَالِكِ. وَقَدْ أَيْدَ الْبُوْعِيَّاشِيُّ التَّهَامِيَّ الْوَزَانِيَّ، فِي تَحْلِيلِ الْأَسْبَابِ الشَّخْصِيَّةِ لِانْتِقَاضِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ عَلَى الْإِسبَانِيِّينَ. وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ قَدَّمَ لَنَا مَعْلُومَاتٍ غَزِيرَةً وَثَمِينَةً جِدًّا عَنْهُ وَعَنْ حَرَكَتِهِ.

قَالَ عَنْ سَبَبِ سَحْنِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، وَرَغْبَتِهِ فِي الْفِرَارِ مِنْ مَلِكِيَّةِ، فِي فَصْلِ سَمَاءَ: "الْأَسْبَابُ الْحَقِيقِيَّةُ لِسَحْنِهِ: ... وَقَدْ جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ هَذَا إِلَى الْمَغْرِبِ عَامَ 1902م¹⁹، وَمِنْ الْمَظْنُونِ أَنَّهُ كَانَ يَبْحَثُ عَنْ مِيدَانٍ لِلْمُعَامَرَاتِ الْقِتَالِيَّةِ الَّتِي كَانَ تَشْبَعُ بِهَا بِرَوَايَاتِ أَخْبَارِ جَدِّهِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ...، وَقَدْ حَفَظَتْهُ هَذِهِ الْأَخْبَارُ أَنْ يَحْضُرَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِيَفْتَحَ تِلْكَ الْمُعَامَرَاتِ بِالْإِنْضِمَامِ إِلَى ثَوْرَةِ بُوَحْمَارَةَ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِلْمَغْرِبِ. وَلَا كُنْهُ سَرْعَانَ مَا انْفَصَلَ عَنْهُ بَعْدَمَا أَطْلَعَ فِي عَيْنِ الْمَحَلِّ عَنْ فَشْلِ النَّائِثِ. وَقَدْ حَمَلَ هَذَا الْإِنْفِصَالَ الْمَوْلَى عَبْدَ الْعَزِيزِ عَلَى أَنْ يُقَرِّبَهُ إِلَيْهِ. إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَوْلَى عَبْدُ الْحَفِظِ انْتَقَضَ عَلَى أَحْيِهِ فِي الْمَغْرِبِ...؛ فَإِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ هَذَا انْضَمَّ فِي هَذَا النَّزَاعِ إِلَى الْمَوْلَى عَبْدِ الْحَفِظِ. وَلَمَّا انْتَصَرَ هَذَا الْأَخِيرُ عَيْنُهُ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى رِيَاةِ الشُّرْطَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ بِمَدِينَةِ طَنْجَةَ.²⁰

يَرُصِّدُ هَذَا النَّصَّ أَشْيَاءَ مُتَعَدِّدَةً:

1- قُدُومَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتَارِيخَهُ الْمَضْبُوط. 2- إِلْتِحَاقَهُ بِثَوْرَةِ بُوَحْمَارَةَ. 3- إِلْتِحَاقَهُ بِالْمَخْزَنِ الْعَزِيزِيِّ. 4- إِلْتِحَاقَهُ بِالْمَخْزَنِ الْحَفِيطِيِّ. 5- تَعْيِينَهُ رَئِيسًا لِلشَّرْطَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ بِطَنْجَةَ. 6- تَوْثِيقَهُ الْإِتِّصَالَ بِالْمُخَابَرَاتِ الْأَلْمَانِيَّةِ بِطَنْجَةَ. 7- ثُمَّ يَرَى الْبُوَعْيَاشِيَّ فِي الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، رَجُلًا مُغَامِرًا يَبْحَثُ عَنْ دَوْرٍ يَقُومُ بِهِ؛ تَحْفِيزُهُ عَلَى ذَلِكَ، ذِكْرِيَاتُ جَدِّهِ، الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ، وَرَغْبَتُهُ فِي التَّشَبُّهِ بِهِ.

8- لَا كِنَّ النَّصَّ يَسْكُتُ عَنْ تَارِيخِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَهُوَ فِي الشَّامِ، وَعَنْ حُضُورِهِ إِلَى الْجَزَائِرِ الْمُحْتَلَّةِ، وَسَبَبِ ذَلِكَ. فَحُبُّ الْمُغَامَرَةِ، وَذِكْرِيَاتُ الْجَدِّ، وَالرَّغْبَةُ فِي التَّشَبُّهِ بِهِ، يُفَسِّرَانِ عِنْدَهُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَإِذَا كَانَ الْبُوَعْيَاشِيُّ لَا يُفَصِّلُ فِي أَمْرِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فِيمَا قَبْلَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، فَهُوَ يُفَصِّلُ فِي أَمْرِهِ، أَيَّامَ الْحَرْبِ الْمَذْكُورَةِ. يَقُولُ:

"وَفِي أَثْنَاءِ قِيَامِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، 1914م، وَتَقَّ الْإِتِّصَالَ بِالْأَلْمَانِيِّينَ وَعُمَلَائِهِمْ ... وَفَعَلَا اهْتَدَوْا إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ هَذَا، الَّذِي جَعَلَ يَتَّصِلُ بِهِمْ سِرِّيًّا، وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلَ الْهَاتِفَ بِالْقَائِمِ بِأَعْمَالِ أَلْمَانِيَا فِي طَنْجَةَ. وَقَدْ تَقَطَّنَ إِلَى هَازِهِ الْإِتِّصَالَاتِ، الْمُخَابَرَاتُ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَسَجَّلَتْ بَعْضَ تِلْكَ الْمُخَابَرَاتِ الَّتِي تُدِينُهُ. وَسَرْعَانَ مَا عَلِمَ بِذَلِكَ، عَنْ طَرِيقِ أَصْدِقَاءَ يَعْمَلُونَ فِي تِلْكَ الْمُخَابَرَاتِ، فَحَزَمَ أَمْرَهُ، وَاحْتَفَى عَنْ طَنْجَةَ، إِلَى جِهَةِ الرَّيْفِ، حَيْثُ يَكُونُ فِي مَأْمَنٍ مِنْ وُصُولِ يَدِ فَرَنْسَا إِلَيْهِ، وَحَيْثُ يُوَجِّدُ مِيدَانًا لِلْمُغَامَرَاتِ الْحَرْبِيَّةِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْ أَجْلِهَا، وَالَّتِي يَكُونُ الْعُنُورُ بَيْنَ طَيَّانَتِهَا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي يَهْفُو إِلَيْهَا، وَالَّتِي لَمَسَ عَنْ كَثَبِ، أَنَّ جُيُوبَ الْأَلْمَانِ الْمُنْبَتِّينَ فِي طَنْجَةَ، مَمْلُوءَةٌ." 21

يَرُصِّدُ هَذَا النَّصَّ مَا يَلِي:

1- تَوْثِيقَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، لِإِعْلَاقَتِهِ بِالْأَلْمَانِ، أَثْنَاءَ قِيَامِ الْحَرْبِ. 2- سِرِّيَّةَ حَرَكَتِهِ فِي الْبِدَايَةِ. 3- اخْتِرَاقَهُ لِلْمُخَابَرَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ، بِوَاسِطَةِ شَبَكَةِ أَصْحَابِهِ. 4- تَسَلُّلَهُ إِلَى الرَّيْفِ.

بَيِّدَ أَنَّهُ يَسْكُتُ عَنْ اعْتِقَالِهِ فِي قَبِيلَةِ وَدْرَاسَ، قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى الرَّيْفِ، وَشَهَامَةِ الْقَائِدِ الزَّلَالِ. وَدَائِمًا يُفَسِّرُ النَّصَّ أَمْرَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، بِحُبِّ الْمُغَامَرَةِ. بَلْ يُضِيفُ إِلَيْهِ حُبَّ الْمَالِ أَيْضًا. وَلَكِنَّا أَنْ نَتَسَاءَلَ: هَلْ كَانَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الْمَلِكِ، مُحْتَاجًا حَقًّا إِلَى الْمَالِ، حَتَّى يَلْتَحِقَ بِالْأَلْمَانِ، وَهُوَ رَعِيسُ

الشُرطَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ بِطَحْجَة؟ أَلَمْ يَكُنِ الْأَجْدَى لَهُ، أَنْ يَدْخُلَ مُغَامَرَةً مَضْمُونَةَ الْعَوَاقِبِ، بِالْإِنْضِمَامِ إِلَى الْفَرَنْسِيِّينَ، وَلَمْ يَكُونُوا أَقْلًا بَدَلًا لِلْمَالِ مِنْ غَيْرِهِمْ؟

وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ الْبُوُعْيَاشِيَّ يُعْطِينَا تَفَاصِيلَ مُثِيرَةً وَفَرِيدَةً وَطَرِيفَةً، عَنْ كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، يُرَافِقُهُ صَاحِبُهُ الْأَلْمَانِيُّ وَالتَّرْجُمَانُ التُّونِسِيُّ، بِالْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، فِي مَدِينَةِ مَلِيلِيَّةٍ، ثُمَّ بِأَبْيِهِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْكَرِيمِ، فِي قَبِيلَةِ بَنِي وَرْيَاغِل. ²² ثُمَّ يَصِفُ الْعَمَلَ الْعَسْكَرِيَّ الْمَشْتَرَكَ، بَيْنَ الْخَطَّابِيِّ الْأَبِ، وَقَبَائِلِ الرَّيْفِ، وَالْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، ضِدًّا عَلَى فَرَنْسَةِ، وَتَوَجُّهُ الْمُقَاتِلِينَ، إِلَى نَاحِيَةِ فَاسَ، وَبِالضُّبُطِ إِلَى قَبَائِلِ كَزْنَايَةِ وَمَرْنَيْسَةِ، لِاسْتِنْفَارِ قَبَائِلِ وَرَغَةِ، حَيْثُ اسْتَهْرَتْ حَرَكَةُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ. ²³

وَبَعْدَ هَذَا، يَعْقِدُ الْبُوُعْيَاشِيُّ فَصْلًا عَنْ مَعْرَكَةِ مِيضَارَ، وَعَبْدِ الْمَلِكِ ²⁴، وَيَبْتَهِمُهُ بِإِحْدَاثِ سُوءِ التَّفَاهُظِ بَيْنَ الْخَطَّابِيِّ، وَعُمَرَ أَحِيدُو الْمَرْنَيْسِيِّ، وَيُفَسِّرُ تَعَاوُنَهُ مَعَ الْإِسْبَانِيِّينَ بِـ "الْمُحَازَقَةِ الَّتِي وَلِعَ بِهَا". ²⁵ وَيَصِفُ مَقْتَلَهُ، نَقْلًا بِالشَّفَافَةِ، عَنْ عُمَرَ الْقَاضِي، مُؤَرِّخِ الثُّورَةِ الرَّيْفِيَّةِ، وَابْنِ عَمَّةِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، وَكَاتِبِهِ، بِصِفَتِهِ شَاهِدٍ عَيَانٍ. ²⁶

6- أَسَدُ الرَّيْفِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْخَطَّابِيِّ لِمُحَمَّدٍ الْقَاضِي: كَانَ عُمَرُ الْقَاضِي مِنْ أُسْرَةِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، فَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ. وَكَانَ شَاهِدَ عَيَانٍ عَلَى الْحَرْبِ الرَّيْفِيَّةِ، وَمَا قَبْلَهَا. وَكَانَ كَذَلِكَ كَاتِبًا لِلْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ. وَعَلَى غِرَارِ الْبُوُعْيَاشِيِّ وَغَيْرِهِ، كَتَبَ عَنْ الْأَمِيرِ الْجَزَائِرِيِّ، فِي دَائِرَةِ كِتَابَتِهِ عَنْ حَرْبِ الرَّيْفِ، سَبْعَةَ وَخَمْسِينَ سَنَةً، بَعْدَ وَفَاةِ الْأَمِيرِ الْجَزَائِرِيِّ... وَقَدْ أَشَارَ فِي فَصْلِ عُتُوئِهِ: "الْحَرَكَةُ الَّتِي قَامَ بِهَا سَيِّدِي عَبْدِ الْكَرِيمِ الْخَطَّابِيُّ، مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ مُحْيِي الدِّينِ، وَهَامَانَ الْأَلْمَانِيِّ"، ²⁷ إِلَى التَّعَاوُنِ بَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْخَطَّابِيِّينَ. وَأَهْمُ مَا يُثِيرُ الْإِنْتِبَاهَ، فِي خَطَابِ هَذَا الْمُؤَرِّخِ، عَنْ حَرَكَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، عِنْدَ حُلُوفَائِهِ الرَّيْفِيِّينَ، هُوَ صَوْرَتُهَا الْمَادِّيَّةُ. يَقُولُ: "ظَهَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ مُحْيِي الدِّينِ وَهَامَانَ الْأَلْمَانِيِّ، بِقَبِيلَةِ جَزْنَايَةِ بِالرَّيْفِ. وَصَارَا يَدْعَوَانِ لِمُحَارَبَةِ فَرَنْسَا، وَيَبِيدِهِمَا مَالٌ عَظِيمٌ كَانَا يُنْفِقَانِهِ عَلَى ذَلِكَ. وَفِي مَدَّةٍ وَحِيدَةٍ، إِنْضَمَّ إِلَى صُفُوفِهِمَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ رِجَالِ الْقَبَائِلِ الرَّيْفِيَّةِ... فَقَامَا بِمُنَاوَشَاتٍ كَبِيرَةٍ ضِدَّ فَرَنْسَا بِالْحُدُودِ الشَّرْقِيَّةِ الْمُتَاحِمَةِ لِمَدِينَةِ تَازَةَ، مُدَّةً تُقَارِبُ سَنَتَيْنِ... إِلَّا أَنَّ الرَّيْفِيِّينَ كَانُوا دَائِمًا يَعْتَدِدُونَ أَنَّ الْإِسْتِعْمَارَ وَاحِدٌ... وَلَأَجْلِ ذَلِكَ، كَانُوا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مُنَاوَشَاتٍ لِلْأَعْدَاءِ الْفَرَنْسِيِّينَ، لَا غَيْرَ، وَيَعْتَظِمُونَ فُرْصَةً لِحُلْبِ الْمَالِ فَقَطْ، إِلَى أَنْ انْتَهَتْ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الْأُولَى". ²⁸

وَيُشِيرُ مُحَمَّدٌ الْقَاضِي إِلَى تَعَاوُنِهِمَا الْمُوَطَّدَ مَعَ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْخَطَّابِيِّ،²⁹ وَاحْتِفَانِهِمَا بَعْدَ الْحَرْبِ، بِسَبَبِ انْقِطَاعِ الْمَالِ عَنْهُمَا مِنَ الْمَانِيَةِ، وَرَحِيلِهِمَا إِلَى تَطْوَان. ³⁰ ثُمَّ يُشِيرُ إِلَى عَوْدَتِهِ مِنْ تَطْوَان، إِلَى الْعَمَلِ السِّيَاسِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ، فِي قَبِيلَتِي قَنَاسَةَ وَمَرْنَيْسَةَ، سَنَةَ 1922، مُتَعَاوِنًا مَعَ الْقَائِدِ عُمَرَ أَحْمَدُ الْمَرْنَيْسِيِّ،³¹ وَضَدًا عَلَى الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، وَلِمَصْلَحَةِ الْإِسْبَانِيِّينَ.³² ثُمَّ يُشِيرُ مُجَدِّدًا إِلَى عَوْدَةٍ ثَانِيَةٍ لَهُ إِلَى تَطْوَان، بَعْدَ إِخْفَاقِ حَرَكَتِهِ هَازِهِ. ³³ ثُمَّ عَقَدَ فَصْلًا خَاصًّا عَنْ "هُجُومِ عَبْدِ الْمَلِكِ مُحْيِي الدِّينِ، عَلَى مِيضَار". ³⁴ ثُمَّ فَصَّلَ تَفْصِيلًا دَقِيقًا جَدًّا فِي أَمْرِ مَصْرَعِهِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَالْأَخْطَاءِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا.³⁵

وَقَدْ قَسَمَ مُحَمَّدٌ الْقَاضِي حَيَاةَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ السِّيَاسِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ:

- دَوْرٍ أَوَّلٍ "هَامٍّ" فِي مُحَارَبَةِ فَرَنْسَةِ فِي قَبِيلَةِ حَزَنَاتِيَةِ أَيَّامِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ، وَدَوْرٍ ثَانٍ فِي التَّأَمُّرِ ضِدًّا عَلَى الْخَطَّابِيِّ مَعَ عُمَرَ حَمِيدُ الْمَرْنَيْسِيِّ، وَدَوْرٍ ثَالِثٍ فِي التَّعَاوُنِ الْمُبَاشِرِ مَعَ الْإِسْبَانِيِّينَ إِنْتَهَى بِمَقْتَلِهِ. ³⁶ وَقَدْ رَأَى فِيهِ مُحَمَّدٌ الْقَاضِي خَائِنًا. ³⁷ بَيِّدَ أَنَّهُ لَمْ يُفَسِّرْ لَنَا لِمَاذَا انْتَقَلَ الْأَمِيرُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنَ مُقَاتَلَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ مَعَ حُلَفَائِهِ الرَّيْفِيِّينَ إِلَى مُقَاتَلَةِ حُلَفَائِهِ الرَّيْفِيِّينَ تَحْتَ رَايَةِ الْإِسْبَانِيِّينَ.

7- الْبُهَال، فِي كِفَاحِ أَبْطَالِ الشَّمَالِ، لِلْعَرَبِيِّ اللَّوْه (1408هـ): لَمْ يُشَارِكِ الْعَرَبِيُّ اللَّوْهُ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْجِهَادِيَّةِ، لِأَنَّهُ كَانَ شَابًّا فِي مُقْتَبَلِ الْعُمَرِ، يَطْلُبُ الْعِلْمَ، تَمَامًا كَمَا كَانَ أَحْمَدُ الْبُوْعِيَّاشِيِّ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ مُؤَرِّخِي الثَّوْرَةِ الرَّيْفِيَّةِ، الَّذِينَ شَرَعُوا يَكْتُبُونَ عَنْهَا، بَعْدَمَا صَارَ الْحَدِيثُ عَنْهَا ظَاهِرَةً ابْتَدَأَهَا الْبُوْعِيَّاشِيُّ، بَعْدَ الْإِسْتِقْلَالِ، وَتَابَعَهَا الْقَاضِي. وَلَمْ يَكْتُبْ عَنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، إِلَّا فِي سِيَاقِ كِتَابَتِهِ عَنْ أَبْطَالِ الْمُجَاهِدِينَ فِي شَمَالِ الْمَغْرِبِ، وَلَا سِيَّمَا الزَّلَّالَ، مِنْ أَبْطَالِ جَبَالَةِ وَالْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ. وَتَوَافَقَ كِتَابَتُهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، رِوَايَةَ الْوَزَائِيِّ وَالْبُوْعِيَّاشِيِّ، دُونَ أَنْ تَتَوَرَّطَ فِي تَمْجِيدِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، أَوْ إِدَانَتِهِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَهِيَ تُقَدِّمُ تَفَاصِيلَ شَيْقَةٍ وَطَرِيفَةٍ، وَأَحْيَانًا فَرِيدَةً لَا تَوْجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِ. قَالَ عَنْ خُرُوجِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ طَنْجَةِ، وَظُرُوفِهَا:

"وَمِمَّا يُرَوَّى مِنْ بُبْلِ الزَّلَّالِ، وَشَهَامَتِهِ، أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَائِلِ الْحَرْبِ الْعُظْمَى الْأُولَى، خَرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ، إِبْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ، بَطْلُ الْجَزَائِرِ، مِنْ طَنْجَةِ، بِقَصْدِ إِغْرَاءِ الْمَغَارِبَةِ عَلَى الثَّوْرَةِ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ، فِي الْمَغْرِبِ. فَقَبَضَهُ أَهْلُ قَبِيلَةِ وَدَرَسَ.

وَحَيْثُ إِنَّ الزَّلَّالَ، كَانَ لَهُ نَفُوذٌ وَسَيْطَرَةٌ عَلَى قِبَائِلِ وَدَرَسَ، بَنِي مُصَوَّرَ، جَبَلِ الْحَبِيبِ، وَبَنِي يَدَّرَ، تَحْتَ رِئَاسَةِ الزَّعِيمِ الرَّيْسُونِيِّ، فَإِنَّهُ أَجَارَهُ مِنْ وَادَرَسَ، وَحَازَهُ إِلَى مَزْلَهِ بِقَرْيَةِ بُوْعَابِشَ،

حَيْثُ أَكْرَمَهُ وَعَامَلَهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ. وَبَقِيَ فِي ضِيَّافَتِهِ عِدَّةَ أَيَّامٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي شُؤْنِهِ، وَلَا حَاوَلَ اسْتِطْلَاعَ الْمُهَمَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَرَجَ مِنْ طَنْجَةَ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُ³⁸

إِنَّ اسْتِقْرَارَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ فِي قَرْيَةِ بُوغَابِش، فِي ضِيَّافَةِ الْقَائِدِ الزَّلَّالِ، وَمُبَالَغَةَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ فِي التَّكْتُمِ عَلَى نَوَايَاهُ، تَفَاصِيلُ جَدِيدَةٍ مُثْبِتَةٌ لِلْإِنْتِبَاهِ. فَهَلْ يُعْقَلُ أَلَّا يَسْتَطْلِعَ قَائِدُ الْمُجَاهِدِينَ أَمْرَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ، وَهُوَ فِي ضِيَّافَتِهِ، وَهَلْ يُعْقَلُ أَلَّا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، وَقَدْ عَلِمَتْ بِالْأَمْرِ الْمُخَابَرَاتُ الْفَرَنْسِيَّةُ، فَبَذَلَتْ لَهُ مِنَ الْمَالِ الْكَثِيرِ مَا بَذَلَتْ، لِيُخَفِّرَ ذِمَّتَهُ؟ وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يُسَاعِدَهُ فِي الْوُصُولِ إِلَى قَبِيلَةِ بَنِي زُرْوَالٍ، كَمَا سَيَأْتِي، دُونَ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَالٍ مِنْ نَوَايَا ضَيْفِهِ؟ أَمْ إِنَّهُ كَانَ وَاطِئًا، لَمَّا عَلِمَ بُهُؤَيْتَهُ وَقَصْدَهُ، وَأَشَاعَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، حَتَّى وَصَلَ الْأَمِيرُ إِلَى مَأْمَنِهِ، ثُمَّ زَعَمَ مَا زَعَمَ، إِتْقَاءً لِشَرِّ فَرَنْسَةَ، وَتَمْوِيهَاً عَلَيْهَا بِأُصُولِ الضِّيَّافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ جِدًّا، حَيْثُ لَا يَسْأَلُ الْمُضِيفُ ضَيْفَهُ، حَتَّى عَنْ هُوَيْتِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. يَقُولُ الْعَرَبِيُّ اللُّوهُ:

"إِلَّا أَنْ عَبْدِ الْمَالِكِ، تَظَاهَرَ لَهُ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ، حَيْثُ زَعَمَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ طَنْجَةَ، فَارًّا بِنَفْسِهِ، كَيْ لَا يَقْبِضَ عَلَيْهِ الْفَرَنْسِيُّونَ، بِحُجَّةٍ أَنَّهُ سُورِيٌّ مِنْ رَعَايَا السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ. وَإِنْ كَانَ فِي الْوَاقِعِ، أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ طَنْجَةَ، لِيُثِيرَ أَهْلَ الْمَغْرِبِ، عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ، بِدَعْوَى الْجِهَادِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَةِ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ، مُحَمَّدٍ رَشَادٍ.

فَلَمَّا عَلِمَ الْفَرَنْسِيُّونَ، بِوُجُودِ عَبْدِ الْمَالِكِ، فِي دَارِ الزَّلَّالِ، أَخَذُوا يُرَاوِدُونَهُ عَلَى تَسْلِيمِهِ لَهُمْ، وَإِرْجَاعِهِ إِلَى طَنْجَةَ، وَأَغْرَوْهُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَالِ، 300000 رِيَالٍ مَغْرِبِيَّةٍ. إِلَّا أَنَّ هِمَّتَهُ وَثَبُلَهُ وَشَرَفَهُ، أَبَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخَفِّرَ ذِمَّتَهُ. فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ سَاعَدَ عَبْدِ الْمَالِكِ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى قَبِيلَةِ بَنِي زُرْوَالٍ.³⁹

وَبَعْدَ هَازِهِ الْمُسَاعَدَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى التَّنَاصُرِ وَالتَّعَاوُضِ الْمَتَيْنَيْنِ، لَا عَلَى الْخِدَاعِ وَالْعَفْلَةِ، نَجِدُ رِوَايَةَ الْعَرَبِيِّ اللُّوهُ، تُنصُّ عَلَى أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدِ الْمَالِكِ، تَوَجَّهَ قَاصِدًا إِلَى قَبِيلَةِ بَنِي زُرْوَالٍ، وَتَسَكَّتْ عَنْ دُخُولِهِ إِلَى مَلِيلِيَّةٍ، وَقُدُومِهِ عَلَى بَنِي وَرِيَاغِلٍ، وَالْفَقِيهِ عَبْدِ الْكَرِيمِ، شَيْخِهَا، وَوَالِدِ الْأَمِيرِ، مَعَ الْبَعْثَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ. لَا كِنَّ رِوَايَةَ الْبُوغِيَّاشِيِّ أُولَى، وَلَا شَكَّ، لِأَنَّ مَنْ حَفِظَ وَشَاهَدَ، حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَحْفَظْ.

ثُمَّ يَصِفُ الْعَرَبِيُّ اللُّوهُ، النَّشَاطَ السِّيَاسِيَّ وَالْعَسْكَرِيَّ لِلْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ، بَعْدَمَا نَجَحَ فِي الْإِتِّصَالِ بِالْخَطَّابِيِّ الْأَبِ، (بَعْدَمَا اتَّصَلَ بِابْنِهِ الْأَمِيرِ بَطَلِ أَنْوَالِ، قَبْلَ ذَلِكَ، بِمَلِيلِيَّةٍ)، وَفِي وَتَجْنِيدِ قَبَائِلِ الرِّيفِ ضِدًّا عَلَى فَرَنْسَةَ؛ تُسَاعِدُهُ أَمْوَالُ الْمُخَابَرَاتِ الْأَلْمَانِيَّةِ. يَقُولُ:

"ثُمَّ إِنَّ وَالِدَ الْأَمِيرِ [الخطّابي]، أَخَذَ يَكْتُبُ الرِّسَائِلَ إِلَى رِجَالِ قَبَائِلِ الرِّيفِ الْوَسَطِ، بَنِي وَرْيَاغِلَ وَغَيْرِهَا، يَحْتَثُّهُمْ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْجِهَادِ، وَمُحَارَبَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ ... يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَحْضُرُوا لَدَيْهِ إِلَى قَرْيَةِ أَحْدِيرٍ، وَيَقُولُ لَهُمْ فِي تِلْكَ الرِّسَائِلِ: إِنَّ أَبَا هُنَا قَدْ فَتِحَ، فَالْمَالُ وَالْجِهَادُ. فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَأْتُوا عَلَى عَجَلٍ. فَحَضَرَ لَدَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَعْيَانِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ، وَمَعَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ، فَذَهَبُوا مَعَهُ صُحْبَةً الْأَلْمَانِيِّينَ، إِلَى مَرْكَزٍ يُدْعَى الْكِيفَانِ، مِنْ قَبِيلَةِ كَرْتَايَةِ، عَلَى أَنْ يَدْفَعَ الْأَلْمَانُ، لِكُلِّ رَاغِلٍ، 5 بَسِيطَاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَلِكُلِّ فَارِسٍ، 15 بَسِيطَةً. وَهُنَاكَ نَزَلُوا فِي مَوْضِعٍ يُدْعَى أَرْزُو أَقْشَارَ، حَيْثُ وَجَدُوا عَبْدَ الْمَالِكِ مُحْيِي الدِّينِ الْجَزَائِرِيِّ، فِي انتِظَارِهِمْ، لِأَنَّهُ كَانَ خَرَجَ مِنْ طَنْجَةِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى هُنَاكَ، وَأَخَذَ يَتَّصِلُ بِرِجَالِ قَبَائِلِ كَرْتَايَةِ، وَغَيْرِهِمْ، لِتَحْرِيزِهِمْ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ. وَهَذَاكَ أَخَذَ رِجَالُ الْقَبَائِلِ، بِمُعَاوَدَةِ رِجَالِ قَبَائِلِ الرِّيفِ، يَهْجُمُونَ عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ، وَيُحَارِبُونَهُمْ لِمُدَّةٍ. ثُمَّ بَعْدَ انْتِصَارِ الْحُلَفَاءِ عَلَى الْأَلْمَانِيَا، انْسَحَبُوا رَاجِعِينَ إِلَى قَبَائِلِهِمْ. كَمَا انْسَحَبَ الْأَلْمَانِيُّونَ الثَّلَاثَةَ، مَعَ مَنْ كَانُوا يُعَاوِدُونَهُمْ مِنْ رِجَالِ كَرْتَايَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَذَهَبُوا مَعَهُمْ إِلَى مَلِيلِيَّةٍ.⁴⁰

وَيَظْهَرُ أَنَّ الْعَرَبِيَّ الْوَلَّهِ، هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يُنْصُ عَلَى أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ الْمَالِكِ، بَعْدَ هَزِيمَةِ أَلْمَانِيَةِ، التَّجَأَ إِلَى قَبَائِلِ غُمَارَةِ، قَرِيبًا مِنْ تَطْوَانٍ. فَهَلْ وَصَلَهَا بَحْرًا مِنْ مَلِيلِيَّةٍ، أَمْ بَرًّا مُخْتَرِقًا لِلْقَبَائِلِ الْجَبَلِيَّةِ؟ لَعَلَّ الْأَقْرَبَ أَنَّهُ دَخَلَ مَلِيلِيَّةً، كَمَا دَخَلَ أَصْحَابُهُ، أَوْ مَعَهُمْ، ثُمَّ مِنْهَا انْطَلَقَ إِلَى الْقَبَائِلِ الْغُمَارِيَّةِ. قال:

"أَمَّا عَبْدُ الْمَالِكِ مُحْيِي الدِّينِ، فَقَدْ لَجَأَ إِلَى الْقَبَائِلِ الْغُمَارِيَّةِ، حَيْثُ مَكَثَ مُدَّةً مَعَ بَعْضِ أَتْبَاعِهِ بِزَاوِيَةِ ثُجْكَانَ، مِنْ قَبِيلَةِ بَنِي مَنصُورٍ، الْغُمَارِيَّةِ. ثُمَّ اتَّصَلَ بِهِ الْإِسْبَانُ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ، ذَهَبَ إِلَى تَطْوَانٍ، بِاسْتِدْعَاءٍ مِنَ الْإِسْبَانِ، وَبَقِيَ هُنَاكَ."⁴¹

لَعَلَّ هَازِئِهِ الْمَرْحَلَةَ، أَغْمَضُ مَرْحَلَةٍ فِي حَيَاةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ. فَلِمَاذَا اخْتَارَ زَاوِيَةَ ثُجْكَانَ الدَّرَقَاوِيَّةَ، دُونَ غَيْرِهَا، وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ بِالتَّمْكِينِ لِلْإِسْبَانِيِّينَ فِي شِمَالِ الْمَغْرِبِ، يَقُودُهَا شَيْخُهَا ابْنُ الصَّدِّيقِ؟ وَهَلْ كَانَ لِهَذَا الشَّيْخِ دَوْرٌ فِي إِقْنَاعِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ، بِعَيْثِ الْقَاوَمَةِ، وَتَفْضِيلِهِ اللَّجُوءَ لِلْإِسْبَانِيِّينَ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُ فِي طَنْجَةِ، عَاصِمَةِ مَشِيخِيَّةٍ؟ أَمْ إِنَّ الْخَطَّابِيِّينَ قَدْ تَنَكَّرُوا لَهُ، بَعْدَ هَزِيمَةِ أَلْمَانِيَةِ، وَتَفَادَى مَا كَانَ يُنْفِقُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْأَلْمَانِيَّةِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ الرِّيفِيِّينَ، وَرُؤَسَائِهِمُ الْخَطَّابِيِّينَ؟ أَمْ إِنَّ الْفُظَاعَاتِ الَّتِي ارْتَكَبَتْهَا الْحُكُومَةُ الرِّيفِيَّةُ، فِي الْقَبَائِلِ الْغُمَارِيَّةِ، هُوَ مَا حَمَلَهُ عَلَى تَغْيِيرِ رَأْيِهِ فِي الْخَطَّابِيِّينَ وَحُكُومَتِهِمْ، فَقَرَّرَ الْإِلْتِحَاقَ مُجَدِّدًا بِالْمَحْزَنِ الْمَغْرِبِيِّ، مُثْمَلًا فِي الْحُكُومَةِ

الخليفية بشمال المغرب؛ ثعاضدها الحماية الإسبانية، ومقيموها العامون؟ أم إن الجواب هو كل هذا؟ على كل حال، فقد ترك الأمير عبد المالك زاوية ثجكان، بعدما أصبح لا نصير له، وأُقيلت في وجهه أبواب ألمانية المهزومة، والحكومة الريفية الناشئة، وصارت فرنسا تُطارده في إلحاح، ورَحَلَ إلى تطوان، عاصمة شمال المغرب، وكُرسي الحكومة الخليفة، والإقامة العامة الإسبانية، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. يقول العربيُّ اللوه:

"أما عبد المالك، فقد لجأ إلى تطوان، واعتذروا عن تسليمه لهم (للفرنسيين). ثم إن المقيم العام، بيرمو دي ريبيرا، وجهه إلى التاحية الشرقية، من الشمال، ليقود حركة لمحاربة أبطال الريف. وهنالك لقي مصرعه، إذ رماه بعض المناضلين برصاصة أودت بحياته، وذلك عام 1343هـ - 1925م. ثم نُقل في محفّة إلى ملبيلة، ومنها إلى تطوان، حيث دُفن بالزاوية الحراقية.⁴²

لقد أجاز الإسبانون الأمير عبد المالك من الفرنسيين. ولاكن كان ثمن الإجازة هو التعاون مع المخزن، أو الحكومة الخليفة، التي كانت كل العمليات العسكرية تتم باسمها، بعدما اختلف مع رفاق الماضي من الريفيين، ولا شك، الذين لم يجد لديهم ملتحدا، وربما حقد عليهم في هذه المرحلة، إذ تركوه يدبر أمره، وهو فريد شريد طريد، وبعدها شاهد الفطاعات التي جرت في قبائل غمارة، على يد جيرانهم وإخوانهم الريفيين. ولعلّه أحسّ بعد هذه الفطاعات، أن الثورة الريفية لم يعد لها معنى، بعدما صار أصحابها يسحقون القبائل الغمارية وقراها. فقرر أن يجند نفسه ضدها، فكان في ذلك حتفه، كما رأينا. ولعلّ الإسبانين أفتعوه، أن المخزن الخلفي لم يجد من يقف في وجه الأمير الخطابي، إلا الأمير عبد المالك، وأن الخير بالخير، والبادي أكرم، وأن الشر بالشر، والبادي أظلم.

إن مصرع الأمير عبد المالك، وهو في خدمة المخزن الخلفي، ثعاضده الحماية الإسبانية، قد أحدث من الأسى ما أحدث في نفوس كل من علّقوا عليه الآمال الكبار، من المغاربة أولياء المخزن، ومن المستعمرين الإسبانين. لذلك، جاءت مقبرته في الزاوية الحراقية ماثلة تُعبّر عن هذا الشعور.

8- أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب ابن منصور (1431هـ - 2009م): لم يكتب مؤرخ المملكة المغربية عبد الوهاب ابن منصور التلمساني الفاسي، (1431هـ)، ترجمة للأمير عبد المالك. بل

كَتَبَ عَنْهُ بِاقْتِضَابٍ فِي سِيَاقِ كِتَابَتِهِ عَنِ النَّائِرِ الشَّهِيرِ بِوَحْمَارَةٍ. وَأَهَمُّ مَا فِي كِتَابَتِهِ، هُوَ رَصْدُهُ لِلْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنْ دُخُولِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى الْمَغْرِبِ. قَالَ عَنْهُ:

"عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحْيِي الدِّينِ، حَفِيدُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ، وَهُوَ مُغَامِرٌ خَطِيرٌ، وَجَاسُوسٌ ذَوِي شَيْءٍ شَهِيرٍ. عَمِلَ مَعَ الْمُخَابِرَاتِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِالْجَزَائِرِ، وَيَنْخَرِطَ فِي حَيْشِهَا الْفَرَنْسِيِّ، وَيَتَلَقَّى تَعْلِيمَاتِهِ مِنْ وَلَايَتِهَا الْفَرَنْسِيَّةِ، لِيَلْتَحِقَ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَرَكََةِ أَبِي حَمَارَةٍ، وَيُنْظِمَ وَحَدَاتِهِ الْعَسْكَرِيَّةَ، وَيُخَطِّطَ لِمَعَارِكَهِ ضِدَّ جُنُودِ السُّلْطَانِ، ثُمَّ يَنْفَصِلَ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَلْتَحِقَ بِالسُّلْطَانِ، بَعْدَمَا رَشَاهُ الْوَلَاةُ الْمَغَارِبَةَ. وَأُذِنَ لَهُ الْفَرَنْسِيُّونَ بِذَلِكَ لِيَقُومَ بِأَدْوَارٍ أُخْرَى لِحِسَابِهِمْ لَدَى السُّلْطَانِ وَمَخْزَنِهِ.

وَقَدْ قَبِلَ السُّلْطَانُ مَوْلَايَ عَبْدَ الْعَزِيزِ تَوْبَتَهُ وَتَوْبَةَ الطَّيِّبِ بِوَعَامَةِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. وَلَا كَيْفَ كَتَبَ سِرِّيًّا إِلَى الْوَلَاةِ يُحَذِّرُهُمْ فِيهَا مِنْهُمَا مَخَافَةً أَنْ تَكُونَ فِي تَوْبَتِهِمَا دَسِيسَةً.

وظَهَرَ فِي النَّهَايَةِ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مُحْيِي الدِّينِ عَمِيلٌ فَرَنْسِيٌّ لِأَنَّ السَّفَارَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ قَامَتْ وَقَعَدَتْ لَمَّا اعْتَقَلَهُ السُّلْطَانُ مَوْلَايَ عَبْدَ الْحَفِيزِ بَعْدَ تَوْلِيهِ الْمُلْكَ، وَطَالَبَتْ بِتَحْرِيرِهِ مِنَ الْإِعْتِقَالِ، بِدَعْوَى أَنَّهُ مِنْ رَعَايَا فَرَنْسَا، فَتَمَّ لَهَا مَا أَرَادَتْ مِنْ تَسْرِيحِهِ.⁴³

إِنَّ رُوحَ الْمُغَامَرَةِ لَا يُمَكِّنُ إِنْكَارُهُ إِطْلَاقًا فِي شَخْصِيَّةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَلَا كَيْنَ، لَمْ يُقَدِّمَ مُؤَرِّخُ الْمَمْلَكَةِ، أَيُّ دَلِيلٍ عَلَى اشْتِغَالِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ لِصَالِحِ الْمُخَابِرَاتِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَلَا لِصَالِحِ الْمُخَابِرَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَلَا فَسَّرَ لَنَا كَيْفَ انْتَقَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي الْمُخَابِرَاتِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَلَا لِمَاذَا، وَقَدْ كَانَ فِي خِزَانَتِهِ وَخِزَائِنِ الْوَثَائِقِ الْمَلَكِيَّةِ الْكَثِيرِ مِنَ الْوَثَائِقِ الْمَخْزُونَةِ وَالْأَحْبَنِيَّةِ. ثُمَّ إِنَّ سُؤَالَ بَدِيهِهَا يَطْرَحُ نَفْسَهُ: إِذَا كَانَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الْمَلِكِ، دَخَلَ الْمَغْرِبَ، لِأَجْلِ تَمْرِيرِ مَشَارِيعِ الْمُخَابِرَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ، حَتَّى إِنَّهَا "قَامَتْ وَقَعَدَتْ لَمَّا اعْتَقَلَهُ السُّلْطَانُ مَوْلَايَ عَبْدَ الْحَفِيزِ، بَعْدَ تَوْلِيهِ الْمُلْكَ، وَطَالَبَتْ بِتَحْرِيرِهِ مِنَ الْإِعْتِقَالِ، بِدَعْوَى أَنَّهُ مِنْ رَعَايَا فَرَنْسَا، فَتَمَّ لَهَا مَا أَرَادَتْ مِنْ تَسْرِيحِهِ.⁴⁴ " فَكَيْفَ

اسْتَطَاعَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الْمَلِكِ، أَنْ يُحَوِّلَ وِلَاةَهُ إِلَى الْأَلْمَانِ وَالْعُثْمَانِيِّينَ، فِي بَدَايَةِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ، وَيَسْتَغْلِلَ لِحِسَابِهِمَا، فِي مِيَادِينِ الْقِتَالِ؟ أَمَا كَانَ الْأَجْدَرُ بِهِ، أَنْ يَبْقَى عَلَى الْوَفَاءِ لِلْفَرَنْسِيِّينَ، وَيَقْبِضَ مِنْهُمْ الْأَمْوَالَ، وَهُوَ أَمِنْ مُرْتَاخٍ فِي طَنْجَةٍ، مُتَمَتِّعٌ بِحَيَاةِ الْحَاضِرَةِ؟ أَمْ إِنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ الْمَلِكِ، حَفِيدَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ، كَانَتْ تَخْطُبُ وَدَّةَ مُخَابِرَاتٍ كُلِّ هَازِهِ الدُّوَلِ، وَكَانَ يُرَاوِغُهَا جَمِيعًا، لِعَدَمِ إِيْمَانِهِ بِأَيَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَأَنَّ وِلَاةَهُ كَانَ لِدِينِهِ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، لِذَلِكَ احْتَارَ أَنْ يُجَازِفَ بِنَفْسِهِ، وَيَخْرُجَ مِنْ مَدِينَةِ طَنْجَةٍ، إِلَى مِيَادِينِ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ، وَالتَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ الْعُظْمَى، تَحْتَ الرَّايَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ؟ وَلِذَلِكَ وَثَّقَتْ بِهِ الْقِبَائِلُ، وَجَاهَدَتْ تَحْتَ إِمْرَتِهِ، فَلَمَّا انْكَسَرَتْ هَازِهِ الرَّايَةُ، وَرَايَةُ

حُفَاةِهمُ الألمان، وَتَسَّ مِنْ حُفَاءِ الأَمْسِ مِنْ أَعْيَانِ الرِّفِيِّينَ، وَوَحَدَ نَفْسُهُ فَرِيدًا، قَرَّرَ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّرْعِيَّةِ الْمَخْزَنِيَّةِ، كَمَا فَعَلَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، عِنْدَمَا التَّحَقَّ بِالْمَخْزَنِ الشَّرِيفِ بِفَاسٍ، لِمَا رَأَى لَهَا مِنْ الْأَوَّلِيَّةِ، فَدَخَلَ إِلَى مَدِينَةِ تَطْوَانِ هَازِهِ الْمَرَّةَ. فَلَعَلَّ هَازَا هُوَ الْأَرْحَجُ عِنْدَنَا فِي تَفْسِيرِ مَوَاقِفِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ، بَدَلًا مِنَ التَّحْيِيزِ ضِدَّهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِصْدَارِ الْأَحْكَامِ الْغِيَابِيَّةِ عَلَيْهِ. وَلَا شَكَّ عِنْدَنَا فِي أَنَّ الْوَتَائِقَ الْفَرَنْسِيَّةَ وَالْأَلْمَانِيَّةَ وَالْعُثْمَانِيَّةَ وَالْإِسْبَانِيَّةَ، فَضْلًا عَنِ الْوَتَائِقِ الْمَخْزَنِيَّةِ، كَفَيْلَةٌ بِتَوْضِيحِ الْمَسَارِ السِّيَاسِيِّ لِلْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ.

9- معلمة المغرب: كَتَبَ الْأُسْتَاذُ عُثْمَانُ بَنَانِي بَحْثًا دَقِيقًا عَنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ الْجَزَائِرِيِّ فِي مَعْلَمَةِ الْمَغْرِبِ، مُعْتَمِدًا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْوَتَائِقِ الْفَرَنْسِيَّةِ، مُسْتَمِرًّا دِقَّتِهَا، فَضْلًا عَنِ الْمَصَادِرِ الْمَغْرِبِيَّةِ. بَيَّنَّ أَنَّهُ لَمْ تَصِلْ يَدُهُ إِلَى بَعْضِ الْكُتُبَاتِ الْمَغْرِبِيَّةِ الْمُهَمَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي إِمْكَانِهَا أَنْ تُنَوِّرَ بَحْثَهُ أَكْثَرَ لَوْ أُطْلِعَ لَهَا، خُصُوصًا فِي بَعْضِ الْمَرَاكِزِ غَيْرِ الْمَضَاءَةِ مِنَ مَسَارِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ. كَمَا لَمْ يَسْتَمِرَّ الْوَتَائِقُ الْإِسْبَانِيَّةَ إِطْلَاقًا فِي بَحْثِهِ. وَمَعَ هَازَا، قَدَّمْنَا أَفْضَلَ بَحْثٍ كُتِبَ حَتَّى الْآنَ عَنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَالِكِ. يَقُولُ:

"وُلِدَ عَبْدُ الْمَالِكِ الْجَزَائِرِيُّ فِي سُورِيَا، وَعَمِلَ ضَابِطًا فِي الْجِيْشِ التُّرْكِيِّ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ لِلْجَزَائِرِ. وَأَنْشَأَ وَجُودَهُ فِي سُورِيَا كَانَتْ عَبْدُ الْمَالِكِ مُرْتَبَطًا بِرِتَابًا وَثِيقًا بِعَمَلِهِ عَلَى بَاشَا... الَّذِي كَانَتْ مِنَ الْعُنَاصِرِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي... "الْإِتِّحَادِ وَالتَّرَقِّي".⁴⁵ إِنَّ هَازَا الْإِرْتِبَاطَ هُوَ أَفْضَلُ تَفْسِيرٍ لِهَجْرَتِهِ إِلَى الْجَزَائِرِ وَالْمَغْرِبِ فِي نَظَرِنَا. كَمَا أَنَّ هَازَا الْإِرْتِبَاطَ يُفَسِّرُ كَذَلِكَ خُرُوجَهُ مِنْ طَنْجَةَ لِأَنَّ الْأَمِيرَ عَلِيَّ بَاشَا "كَانَ يَلْعَبُ دَوْرًا أَسَاسِيًّا فِي تَهْيِيجِ وَإِثَارَةِ بُلْدَانِ شَمَالِ إِفْرِيقِيَا خِلَالِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى".⁴⁶ لَقَدْ كَانَتْ الْأَمِيرُ عَبْدُ الْمَالِكِ يَعْمَلُ فِي نَظَرِنَا عَلَى تَمْهِيدِ الطَّرِيقِ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي شَمَالِ إِفْرِيقِيَا، تَمْهِيدًا سَرِيًّا بِطَبِئَتِهِ غَيْرِ مُعْلَنٍ فِي بَدَايَةِ أَمْرِهِ. لِذَلِكَ كَانَتْ يَتَحَوَّلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنَ الْجَزَائِرِ وَتُونِسَ حَيْثُ كَانَتْ السُّلْطَاتُ الْفَرَنْسِيَّةُ تَسْتَقْبِلُهُ بِحَفَاوَةٍ.⁴⁷

وَقَدْ وَاطَأَ عُثْمَانُ بَنَانِي الْمَوْرُحِينَ السَّابِقِينَ فِي تَأْكِيدِ التَّحَاقُّقِ بِالثَّوَارِ فِي شَرْقِ الْمَغْرِبِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِالْمَخْزَنِ الْعَزِيزِيِّ وَالْحَفِظِيِّ. ثُمَّ تَتَبَعَ اسْتِنَادًا عَلَى الْوَتَائِقِ الْفَرَنْسِيَّةِ نَشَاطَهُ فِي الرَّيْفِ، وَعَلَاقَاتِهِ بِالْخَطَّابِيِّينَ. وَهُوَ كَذَلِكَ يَنْفَرِدُ بِمَعْلُومَاتٍ نَادِرَةٍ، كَمَا رَسَالِ الْأَمِيرِ عَائِلَتُهُ إِلَى إِسْبَانِيَّةٍ، وَرَهْنِهِ عَقَارُهُ بِطَنْجَةَ قُبَيْلَ خُرُوجِهِ مِنْهَا.⁴⁸ وَقَدَّمْنَا كَذَلِكَ تَفَاصِيلَ دَقِيقَةً عَنْ نَشَاطِهِ فِي الْقَبَائِلِ الرَّيْفِيَّةِ،⁴⁹ وَعَلَاقَاتِهِ بِالرَّيْسُونِيِّ، قَائِدِ الْمُجَاهِدِينَ الْكَبِيرِ فِي الشَّمَالِ الْعَرَبِيِّ لِلْمَغْرِبِ.⁵⁰

بَيَّنَّ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْ احْتِفَائِهِ بِعِيدِ هَزِيمَةِ أَلْمَانِيَّةٍ لِأَنَّ الْوَتَائِقَ الْفَرَنْسِيَّةَ الَّتِي عِنْدَهُ لَا تَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا. وَالْحَالُ أَنَّ الْعَرَبِيَّ اللَّوَّهُ هُوَ مَنْ يُشِيرُ إِلَى النِّجَاحِ إِلَى زَاوِيَةِ تُجْكَانَ مِنْ قَبَائِلِ غُمَارَةِ، قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى تَطْوَانِ، وَالْإِنْخِرَاطِ فِي الْعَمَلِ لِصَالِحِ الْمَخْزَنِ مِنْ جَدِيدٍ. ثُمَّ حَدَّدَ تَارِيخَ عَوْدَتِهِ إِلَى قَبَائِلِ بَنِي زَرْوَالِ،⁵¹ ثُمَّ تَارِيخَ اصْطِدَامِهِ بِقُوَّاتِ الْأَمِيرِ الْخَطَّابِيِّ، بِـ 1341هـ - 1923م، وَانْكِسَارِهِ أَمَامَهَا، وَالتَّجَاهِيهِ إِلَى تَطْوَانِ

في 4 ذي القعدة 1341هـ- 18 يونيو 1923م، ثم تاريخ تكليف المخزن إياه، ومن ورائه الحماية الإسبانية، بمقتلة الخطابي مجددا، حيث لقي مصرعه.⁵²

بيد أن اعتماده على الوثائق الفرنسية دون الإسبانية والعثمانية والألمانية، فضلا عن بعض الكتابات المغربية، جعلته يفت أحيانا مكتوف الأيدي في فهم طبيعة حركة الأمير عبد الملك، وطبيعة شخصه، وفي فهم أبعاد كثيرة من شخصيته المثيرة للجدل.

خلاصة: لقد استطاع الأمير عبد الملك الجزائري، أن يدخل بحجراته وطموحاته ودهائه ومبادئه وجهاده تاريخ المغرب الأقصى المعاصر، من الباب الواسع، ويكوّن حلقة وصل بين الأقطار المغربية والشامية في العصر الاستعماري. بيد أن البحث التاريخي ما يزال حتى الآن، أسير النظرة الأحادية إلى تاريخه، أي أسير مبدأ الاعتماد على ضرب واحد من الوثائق، أو ضربين. وفي نظرنا، يجب أن تتكاتف الجهود، لتشر الوثائق الاستعمارية، من فرنسية وإسبانية وألمانية وغيرها، ونشر الوثائق المغربية والعثمانية، لتبين طبيعة المسار السياسي للأمير عبد الملك، قبل الشروع في تقييم تجربته التاريخية. والله الموفق.

الهوامش:

- * - تحاف أعلام التاس: 407/1 --- 2 - الظل الوريف: 73-74 --- 3 - الظل الوريف: 98.
- 4 - الظل الوريف: 98 --- 5 - الظل الوريف: 98 --- 6 - الظل الوريف: 98-99.
- 7 - الظل الوريف: 101-102 --- 8 - الظل الوريف: 103 --- 9 - الظل الوريف: 102-103.
- 10 - الظل الوريف: 102 --- 11 - الظل الوريف: 104 --- 12 - الظل الوريف: 104.
- 13 - الظل الوريف: 104 --- 14 - الظل الوريف: 104 --- 15 - الظل الوريف: 104-405.
- 16 - الظل الوريف: 103 --- 17 - الظل الوريف: 98 --- 18 - تاريخ المغرب: 162/3-163.
- 19 - أي إله جاء وهو ابن أكثر من ثلاثين سنة بقليل، وهو سين الطموح والمغامرة الكبيرة.
- 20 - حرب الريف التحريرية: 86/1 --- 21 - حرب الريف التحريرية: 86/1-87 --- 22 - حرب الريف التحريرية: 87/1-91.
- 23 - حرب الريف التحريرية: 91/1 --- 24 - حرب الريف التحريرية: 319/2 --- 25 - حرب الريف التحريرية: 319/2.
- 26 - حرب الريف التحريرية: 321/2-322 --- 27 - أسد الريف: 57-58 --- 28 - أسد الريف: 57.
- 29 - أسد الريف: 57 --- 30 - أسد الريف: 57 --- 31 - أسد الريف: 131 --- 32 - أسد الريف: 132.
- 33 - أسد الريف: 133 --- 34 - أسد الريف: 151 --- 35 - أسد الريف: 154 --- 36 - أسد الريف: 154.
- 37 - أسد الريف: 154 --- 38 - البهال: 51 --- 39 - البهال: 51-52 --- 40 - البهال: 253-254.
- 41 - البهال: 254 --- 42 - البهال: 254 --- 43 - أعلام المغرب العربي: 320-321 /1.
- 44 - أعلام المغرب العربي: 320-321 --- 45 - معلمة المغرب: 2985/9 --- 46 - معلمة المغرب: 2985/9.
- 47 - معلمة المغرب: 2985/9 --- 48 - معلمة المغرب: 2985/9 --- 49 - معلمة المغرب: 2985/9.
- 50 - معلمة المغرب: 2985/9 --- 51 - معلمة المغرب: 2986/9 --- 52 - معلمة المغرب: 2987/9.

ABSTRACT: Prince Abdul Malik Aljazairi managed to enter with his Boldness and ambitions principles and struggle of contemporary history Far Morocco, from the wide door, and be a link between the Western and Eastern Arabic countries and maize in the Colonization age, while the historian research continues even now, a prisoner of unilateral perception of history, a prisoner of the principle of relying on a single hit of documents , or two kinds. In our view, we must unite efforts, to spread the colonial documents, from the French and Spanish, German, etc., and the deployment of the Moroccan and Ottoman documents, to show the nature of the political process of the Prince Abdul Malik, before proceeding to evaluate the historical experience.